الفصل الأول
حب «قريش» لـ «عثمان»

أغنية الأمهات:

أحبُّكَ والرحمنَ حبَّ قُريشٍ عثمانَ

أغنيةٌ اشتهرتْ في «مكةَ»، وراحت الأمهاتُ يرددنهَا على مسامع أطفالهنَّ الصغارِ، يدللنهمْ بهَا، ويلاعبْنَهم، فهي كلماتٌ بسيطةٌ، سهلةٌ على آذانِ الصغارِ، حلوةُ الحروفِ، سهلةُ النطقِ؛ لذا اعتادَ الأطفالُ الصغارُ أن يطربُوا لسماعهَا، فَمَنْ ذاكَ الذي كانتْ نساءُ قريشٍ تقسمُ بالرحمنِ لأبنانهنَّ على أنهنَّ يحببنهمْ حبَّ قبيلةِ قريشٍ لهُ؟، من ذلكَ الرجلُ الذي اشتهرَ بينَ قريشٍ بحبٍّ جميعِ الناسِ له؟، بل وسارَ ذكرهُ «في الطرقات» تتغنى به الأمهاتُ خلف النوافذِ، فيملأ سماع اسمه آذانَ الصغارِ.

رجلٌ اشتهرَ بالخُلقِ الحسنِ:

إنّه عثمانُ بنُ عفانَ، رجلٌ صدقَ فيه قولُ الرسول ﷺ:

– «خياركمْ في الجاهليةِ خياركُم في الإسلامِ إذا فقهوا».

فالإنسانُ حسنُ الخُلقِ يكونُ كذلكَ حتى قبلَ مجيءِ الإسلامِ، الإنسانُ

الحريصُ علَى فعلِ الخيرِ في الجاهليةِ سيحرصُ عليهِ أكثرَ بعدَ مجيءِ الإسلامِ، لذلكَ علمنا الرسول ﷺ أن أفضلَ الناسِ قبلَ مجيءِ الإسلامِ همَ أفضلُ الناسِ بعدهُ إنْ آمنوا، كذلكَ كانَ «عثمانُ»، نعمْ، فلقدْ عُرِفَ بين الناسِ، واشتهرَ ذكرهُ على أنَّه كان «عذب الروحِ» يحبهُ الناسُ، ويأنَسونَ إليهِ، ويتمنَّوْن أن لو يسمحُ الوقتُ لهمْ لِيُطيلوُا الجلوسَ إليهِ، فهو «حلوُ الشمائلِ» يعجبُ مَنْ يعرفهُ بخصالِه الحميدة، ويودُّ أن يوثقَ معرفتهَ به، لذلكَ ازدادَ رصيدُ الحبِّ له في قلوبِ جميعِ الذينَ يعرفونهَ، على ذلك أجمعَ كلُّ مَنْ وصفُوه[1] .

وجمال الشكل أيضاً:

وأنعمَ اللَّه على «عثمانَ» إضافةً إلى حسنِ الخُلقِ الشكلَ الجميلَ الوسيمَ، فهو «رَبْعةٌ» أي وسطٌ، فلا يعدُّ طويلاً، ولايمكنُ أن يقالَ عنه إنه قصيرٌ، وكانَ متوسطَ الطولِ، جميلَ الوجهِ، رقيقَ البشرةِ، وزادتْ من جمالِ وجهه لحيتُه الكبيرةُ التي أضفتْ عليه الهيبةَ، وكان عثمانُ أسمرَ اللونِ، أما عن شعرِ رأسهِ فقد انسابَ حتى أسفلِ أذنيه، أما منتصفُ رأسهِ فقدْ أصابهَ الصلعُ، ولم يقللْ من جمالِ وجههِ بعضُ آثارٍ خلفها مرضُ الجدريّ عليه وكان «عثمانُ» كذلك عريضَ الكتفينِ، واضحَ القوَّة، بذلك يكونُ اللَّه قد جمعَ له بين جمال الجوهر وجمال المظهر[2] .

١- مروج الذهب - المسعودي- تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد- دار الكتاب اللبناني -ط١٨٦هـ. ص٥٤٣.

٢- ذو النورين عثمان بن عفان -محمد رضا- دار الكتب اللبنانية-ص١٤.

نَسَبُه:

ماذا لو اجتمعَ له إلى جانبِ جمالِ المظهرِ وحسنِ الأخلاقِ النسبُ العالي الرفيعُ أيضاً؟ إذنْ لكانَ جديراً باحترامِ الناسِ له إلى جانبِ حبهمْ، وكان «عثمانُ» ممنْ أنعمَ اللَّهُ عليهمْ وأكرمهمْ بفضلهِ وأكثر من العطاء لهم، وكان «عثمانُ» ينتَمِي في نسبهِ إلى قبيلةِ قريشٍ، وبالتحديدِ من «بني أميةَ» وإذا ما تتبعنَا أسماءَ أجدادهِ سنجدُ أنه يجتمعُ مع النبيِّ الكريم في أن كليهمَا من أبناءِ «عبدمنافٍ»، وعلى هذا فعثمانُ من أحسنِ أهلِ مكةَ خَلقاً «في جمال المظهرِ» و«خُلقاً» «في طهارة النفس»، وهو من أشرافِهَا في النسبِ، فيا لهَ من رجلٍ يفخرُ بأن يجلسَ إليهِ جميعُ الناس، ويحبُّه مَنْ يرَاه للمرةِ الأولَى، بل تتحدثُ عنه، وتنشدُ فيهِ الأشعارَ قريشٌ كلُّها!.

فهو «عثمانُ بنُ عفانَ بن أبي العاصِ بن أميةَ بن عبدِشمس بن عبدمنافٍ»، أما أمُّه فهي لا تقلُّ في نسبِها شرفاً عن أبيه، وذلك لأمرٍ بسيطٍ جداً؛ فهي تلتقِي مع أبيهِ في النسبِ، فاسمُها «أروَى ابنةُ كرير بنِ جابرِ بنِ حبيبِ بن عبدشمس بن عبدمنافٍ»[1] ولقد اجتمعَ له شرفُ النسبِ من الناحيتينِ: ناحيةِ الأبِ، وناحيةِ الأمِ، فيا له من رَجُلٍ جمعَ اللَّه له ما لمْ يجمعْ لكثيرينَ غيره!.

١- مروج الذهب - المسعودي- ص٥٤٣.

إسْلامُه:

كان «عثمانُ» من أوائلِ الداخلينَ في الإسلامِ، ومن السابقينَ إلى الإيمانِ باللَّهِ ورسولِه، وقدْ أسلمَ بدعوةِ أبي بكرٍ الصديق له، فكانَ أولَ المستجيبينَ لكلماتِه، كمَا يُعدُّ أحدُ الرواةِ الثقاتِ[1] وكان عمرُه في ذلكَ الوقتِ قد زادَ عن الثلاثينَ، قابلَه «أبو بكرٍ» فقالَ له:

– «ويحكَ يا عثمانُ واللَّهِ إنَّكَ لرجلٌ حازمٌ ما يخفى عليكَ الحقُّ من الباطلِ، هذه الأوثانُ التي يعبدُها قومكَ. أليستْ حجارةً صماءَ لاتسمعُ ولا تبصرُ، ولا تضرُ ولا تنفعُ؟». إنه ليدعُوه إلى الإسلامِ بـ«الموعظةِ الحسنةِ عارضاً عليه الأمرَ فهذه الحجارةُ لا تسمعُ ولا تبصرُ فليسَ لها من القدرةِ شيءٌ وهي لن تضرَّ، ولا تستطيعُ أن تنفعَ، ويدعو «أبو بكر» صاحبَه فيبدأه «بالحكمَة» يمتدحُ عقلَه وقدرتهُ على التمييزِ بينَ الحقِ والباطلِ، والقدرةِ على اتخاذِ القرارِ الحاسمِ، ويتركُ في النهايَة له الإجابةَ، والقولَ بنفسِه، إنها «القدوةُ الحسنَة» و«المثالُ الصالحُ» في الدعوةِ نتعلمهُ من «الصديقِ»، وما كانَ من «عثمانَ» إلا أن أجابَ:

– «بلَى واللَّهِ إنَّها كذلك».

و«عثمانُ» العاقلُ، صاحبُ الرأي، يجيبُ على الفورِ، يعترفُ مقسماً، مؤكِّداً أن «الأصنامَ» كما وصفهَا «أبو بكرٍ»، إنه حُسْنُ الاختيارِ، حُسنُ

١– السيرة النبوية – ابن هشام – مكتبة شقرون –حـ١–ص٢٣٢.

اختيارِ الداعيةِ للإنسانِ الذي يدعُوه، حتى تجدَ دعوتهُ قبولاً لديهِ، حتى إذا أجابهُ «عثمانُ» الإجابةَ المناسبةَ، أكملَ الداعيةُ العظيم «أبو بكر» كلماتِه:

– هذا محمدُ بنُ عبداللَّه قد بعثَه اللَّه برسالتهِ إلى جميعِ خلقهِ، فهلْ لكَ أن تأتيهُ وتسمعَ منه .

لقد وضَّحَ «أبو بكر» فسادَ عبادةَ الأصنامِ، ولقد اتفقَ رأيُ «عثمانَ» معَه فكانَ لا بد من أن يأتي له بالبديلِ الصحيحِ، وهو دعوتُه إلى الاستماعِ إلى مايقولُه الرسول ﷺ، فاستجابَ «عثمانُ» على الفورِ قائلاً:

– «نعمْ» (١) .

وأرادَ اللَّهُ لـ«عثمانَ» الهدايةَ، فما كانَ أسرع مرور رسُول اللَّهِ ومعه عليُّ بنُ أبي طالبٍ، فلمَا رأى «أبو بكر» «الرسُول» قامَ إليه، وهمسَ في أذنِه بكلماتٍ، فجاءَ الرسُول، وقعدَ ثم أقبلَ على «عثمانَ» فقالَ له:

– «يا عثمانُ! أجبِ اللَّه إلى جنتهِ فإني رسُول اللَّه إليكَ وإلى خلقهِ».

لقد قدرَ اللَّهُ الخيرَ كلَّ الخيرِ لـ«عثمانَ» إذ مرَّ الرسُول بعدَ دعوَة أبي بكر له، أخبرَه «أبو بكر» بالأمرِ فدَعا ﷺ «عثمانَ» إلى الإسلامِ، فبماذَا شعرَ «عثمانُ» في تلكَ اللحظاتِ الجميلةِ، والرسول يحدثُه ويرجُو له الفوزَ؟ يقولُ «عثمانُ»:

١– ذو النورين – محمد رضا– ص١٥ .

– «فواللَّهِ ما تمالكتُ حينَ سمعتُ أنْ أسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريكَ له وأن محمداً عبدُه ورسولُه».

إنها النفسُ النقيةُ ما تكاد تصغي إلى «صوتِ الحقِ» يناديها حتى تستجيبَ له على الفور، يقسم «عثمانُ» أنه ما تمالكَ نفسَه حينمَا استمعَ إلى كلماتِ الرسولِ، وشهدَ الشهادتينِ معلناً إيمانَه بـ«اللَّه» وتصديقه لجميعِ ماجاءَ به الرسُول[1].

«عثمانُ» يُعذبُ كيْ يتركَ دينَه:

إنها عادة «أهلِ الباطلِ» حينمَا يعجزونَ، إنها عادةُ «مشركي مكةَ» يتبعونَها تجاهَ كلِّ مَنْ يهتدي إلى الطريقِ الصحيحِ، ولمْ يرحمُوا حتى «عثمانَ» ذلك الذي روينَا منذُ قليلٍ عن مقدارِ حبهم له، واستماعِهم بالجلوسِ إليه، والنظرِ إلى جماله، بل التغنيِّ به، كلُّ هذا ينقلبُ إلى عداوةٍ شديدةٍ له عندمَا يدخلُ في «الإسلامِ» لأنهُ سلاحُ العاجزِ لا يجدُ غيرَه، حينمَا يحسُّ أن الذي أمامَه على الحقِّ ولنْ يتركَه قط، يلجؤونَ إلى العنفِ .. وهل يفيدهم ذلك؟.

أما عن الذي فعلُوه بعثمانَ، فلقد كانَ غريباً، إذ إن عمَّه وهوَ الذي كانَ من المقربينَ إليه، ومنَ المدافعينَ عنهُ في الجاهليةِ وقبلَ إسلامه، أمَا وقدْ آمنَ فلقدْ أخذه، ثم قيَّدَه وقالَ له:

١– ذو النورين – عباس محمود العقاد –دار العروبة – ص٦٥.

– «أترغبُ عن ملةِ آبائكَ إلى دينٍ مُحْدَثٍ ! واللَّهِ لا أُخَلِّيكَ أبداً حتى تدعَ ما أنتَ عليه من هذا الدينِ».

إنه يقْسُو عليه في القولِ لأنهُ أسلمَ، فقد غره كفره وأخذته العزة بالإثم، وزين له الشيطانُ الباطل وزيَّفَ له الحقائقَ، ويقْسمُ هذا الكافرُ أنه لنْ يتركَ «عثمانَ» لن يفكَّ قيدهُ حتى يتركَ الإسلامَ. وهذا شأنُ المشركينَ والمبتدعَة طولَ الزمانِ.

إيمانٌ وثباتٌ:

أمَّا «عثمانُ» الذي ذاقَ لذةَ الإيمانِ، وحلاوةَ الإسلامِ فلقد كانَ قلبُه ساكناً مطمئنًّا رغمَ ما هو فيهِ من تقييدٍ، رغمَ تهديدِ عمِّه، وقسوتهِ عليه، وكيفَ لا يكونُ قلبُه ساكناً مطمئناً وهو متصلٌ بـ«كلماتِ اللَّهِ» بآي الذكرِ الحكيمِ إنهُ في هذا الموقفِ الصعبِ يجيبُ في ثقةٍ:

– «واللَّهِ لا أدعَهُ أبداً»[1].

يقسمُ عثمانُ باللَّهِ وهو صادقُ العزمِ أنهُ لن يتركَ دينَه أبداً.

أمامَ هذهِ العزيمةِ الصادقةِ، والإرادةِ القويةِ لم يجدْ عمُّه إلاَّ أن يتركهُ حينمَا علمَ أن الإيمانَ الذي ملأ قلبَه باقٍ لأنه عن قناعةٍ ويقينٍ، وإنه مهمَا فعلَ فلنْ يغيرَ من يقينِ صاحبِه، هنَا أعلنَ فشلهُ وانسحبَ، ليتركَ «عثمانَ»

١– ذو النورين – عثمان بن عفان– محمد رضا– ص١٧.

المؤمنَ القويَّ يواصلُ مسيرتهُ ضمنَ صحابةِ الرسول ﷺ، مسيرةَ نصرةِ «الإسلامِ» والعمَل بأوامرِ «اللَّه» والابتعادِ عن نواهيهِ، ودعوةِ الناسِ إلى الدخُولِ فيه، ولكنْ هلْ يتركهُم المشركُون وما أرادوا مِنَ الخيرِ؟.

obeikandl.com